مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (32) العدد (1)2010
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (32) No. (1) 2010

الملامح اللسانية في الفكر اللغوي العربي
- عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" أنموذجاً-

الدكتور محمد إسماعيل بصل*
فاطمة بلـه**

(تاريخ الإيداع 6 / 12 / 2009. قبل للنشر في 22 / 3 / 2010)

□ ملخّص □

يهدف هذا البحث إلى تقصي ملامح الفكر العربي اللساني; لأن اللغة العربية لغة علم، لا نفرض عليها القوالب اللسانية الغربية الجاهزة، إنما تكون مبادئ اللسانيات الغربية بمنزلة جسر لقراءة لغوية في التراث اللغوي العربي.

وقد وقع الاختيار على رمز من رموز هذا التراث اللغوي، هو عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز"، لندرك أن كثيراً من المقولات اللسانية قد سبق للفكر اللغوي العربي أن توصل إليها، فكادت النتائج التي أثبتها الجرجاني تتطابق مع كثير من المقولات التي جاء بها "فردينان ده سوسر" و "رومان جاكبسون" و"جون كوهن".....

وليس الغرض من هذه الدراسة عقد موازنة بين علماء اختلفوا في الأزمنة والبيئة، والثقافة، إنما هي للتأكيد أن الدراسة التحليلية للمادة اللغوية العربية قد سبقت بلورة مقولات لسانية عامة، فجاءت الأفكار اللسانية العربية تحمل طابع الأصالة، ولم تأتِ نتيجة تطبيق نظرية لسانية غربية.

الكلمات المفتاحية: النظم، الشعرية، الانزياح، العلامة، الدال، المدلول.

* - أستاذ- قسم اللغة العربية- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة تشرين- اللاذقية- سورية.
**- طالبة دراسات عليا (ماجستير)- قسم اللغة العربية- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة تشرين- اللاذقية- سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (32) العدد (1)2010
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (32) No. (1) 2010

Lingual Features in Linguistic Arabic Thought: Abdulkaher Aljirjani in his Book " Inimitability Attestations" as a Pattern.

Dr. Mohammad Basal*
Fatima Ballah**

(Received 6 / 12 / 2009. Accepted 22 / 3 / 2010)

□ ABSTRACT □

This research aims to pursue the features of the Arabic lingual thought. Because the Arabic Language is a language of Knowledge and science, no already-made western lingual forms can be imposed on it; but the western lingual principles can be a bridge for a lingual reading in the Arabic linguistic heritage.

One of the Arabic lingual symbols been chosen who is Abdulkaher Aljirjani in his Book " Inimitability Attestations" in order to realize that many of the lingual sayings had been already reached by the Arabic linguistic thought. Thus, the results proved by Aljirjani conform to many sayings proposed by Ferdinand de Saussure, Roman Jacobson and John Cohen …

The purpose of this study is not to balance among some scientists from different times, environments and cultures but to assure that the analytic study of the Arabic Linguistic material had preceded the crystallization of general lingual sayings. So, the Arabic thoughts about linguistics sound totally genius because it is not a result of applying a western lingual theory.

Keywords: rhythm, poetic, displacement, sign, signifier, signified.

***Prof, Department of Arabic language– Faculty of Arts and humanities – Tishreen University. Lattakia . Syria .**
****** postgraduate student, Department of Arabic language– Faculty of Arts and humanities – Tishreen University . Lattakia . Syria .**

مقدمة:

إنّ في هديل الحمام وهدير الأنهار وحفيف الشجر ولمع البرق وقصف الرعد .....، لغة تنطق بها الطبيعة، تجلت فيها قدرة الله تعالى،وضعف البشر في إدراك ماهيتها، فالطبيعة تتكلم بلا لسان، أما البشر فإنسانيتهم مشروطة باللسان الذي يميزهم مِن سائر المخلوقات الذين يشتركون معها في البحث عن الطعام والشراب، فاللغة الإنسانية ليست مجموعة أصوات لها معان معينة، بل هي تعكس ما في داخل الإنسان من أفكار.

وهي إحدى أهم وسائل الاتصال بين أبناء البشر، وقد حظيت بعناية خاصة في الحضارات القديمة كلها، كلٌّ بحسب ظروفه التاريخية والاجتماعية، ولئن كانت القرون السابقة، قد اهتمت بالعلوم الفيزيائية والطب والرياضيات، فإن القرن العشرين، يعد ثورة فكرية في المجال اللغوي، لكنّ حداثة اللسانيات بوصفها علماً، لا تعني عدم وجوده في الماضي، فأي علم كائن في الوجود لا يُخلق من العدم بل لابد من إرهاصات تسبقه.

ولم تكن الدراسات اللغوية لتشهد تحولاً عظيماً..، لولا ثورة اللسانيات التي استطاعت بدقة مناهجها واتساع موضوعاتها، أن تدخل مجالات العلوم كافة، فشغلت صدارة العلوم الإنسانية، فكل تحليل لأية ظاهرة إنسانية لابد له من المرور عبر اللغة، للكشف عن البنيات الذهنية، فالبعد اللغوي لأمة هو المدخل الحقيقي لكل أبعادها، بل إنَّ "العلوم أصبحت تلتجئ سواء في مناهج بحثها أو في تقدير حصيلتها العلمية إلى اللسانيات وإلى ما تفرزه من تقريرات علمية وطرائق في البحث والاستخلاص"[1].

وبالتالي فإنّ اللسانيات تسعى إلى بناء نظرية لسانية عامة، تهدف إلى استيعاب قواعد اللسان كلها، بصرف النظر عن خصوصية أية لغة.

وقد شهدت النظرية اللسانية تطوراً كبيراً من خلال علاقتها بالعلوم الإنسانية، والعلوم المادية كالعلوم العصبية وعلم الأحياء وعلم الأمراض اللغوية.....

وإذا كانت الدراسات اللسانية العربية قد بدأت مبكرة عند علماء العرب، فإنّ الدراسات اللسانية الغربية كانت تدرس وفق معطيات فلسفية وتاريخية إلى أن ظهر سوسر عام (1807– 1913) في كتابه "محاضرات في الألسنية العامة" وحدد موضوع اللسانيات بأنه "اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها"[2].

وهذا يعني أن اللسانيات تعدُّ اللغة موضوعها الكلي، وأن مجال الدراسة اللغوية ينحصر في دراسة اللغة بذاتها ولذاتها، بوصفها وسيلة تعبير وتواصل، منطلقاً من ثنائية الدال والمدلول، واللغة والكلام.

أهمية البحث وأهدافه:

تظهر أهمية هذا البحث بإلقاء الضوء على جانب مهم من الفكر اللغوي العربي عند العرب. وخير مثال على ذلك هو "عبد القاهر الجرجاني" في كتابه "دلائل الإعجاز" في القرن الخامس الهجري .

من خلال دراسة أسرار النظم عنده، وتقصي الملامح اللسانية؛ لنشهد بعد ذلك تشابهاً كبيراً مع مقولات لسانية حديثة عرفناها مع سوسر ورومان جاكبسون ورولان بارت وجان كوهن. ويهدف هذا البحث إلى الاعتراف بجهد العرب في وضع حجر الأساس للدراسات اللسانية اللاحقة التي تكشف أهمية سياق الحال وربطه بالمتلقي وبالظروف المحيطة بالحدث الكلامي في إظهار المعنى وتوسيعه معجمياً.

منهجية البحث:

يقوم هذا البحث على منهج وصفي تحليلي، حيث يعرض الظواهر اللغوية، فالاستقراء والتحليل لأية ظاهرة لغوية، تؤدي عبر القراءة الموضوعية إلى الكشف والوصول إلى نتائج جيدة.

أسرار نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني:

تتفق اللسانيات الحديثة على أنّ الكلمات لا معنى لها، إلا ضمن السياق الكلامي، فالسياق يحدد معنى الكلمة التي ليس لها معنى خارج السياق سوى معناها المعجمي.

وهذا ما جاء به الجرجاني، الذي سعى إلى كشف أهمية النظم، وما النظم إلا توخي معاني النحو، فليست الميزة في اللفظ ولا في المعنى إنما في النظم "فالنص كيان له بناؤه، ولابد من وجود الروابط والعلاقات التأثيرية بين وحداته المكونة له صحة أو اضطرابا"[3] وبيان ذلك عند الجرجاني قوله: "اعلم أن ليس "النَّظْمُ" إلا (أنّ) تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجَتْ فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسِمَتْ لك، فلا تُخِلُّ بشيء منها"[4].

وهذا يرتبط بالمعاني النحوية في الكلام، ويرتبط أيضاً "بالدلالة الموقعية أو المقامية أو التراتبية للكلمة وارتباطها مع الكلمات الأخرى وما يحدثه هذا الارتباط من تصورات"[5].

وفي هذا يقول الجرجاني "واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك، أن لا نَظْمَ في الكَلِمِ ولا ترتيب، حتى لا يُعلَّق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبَبٍ من تلك. هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس"[6].

ثم يدعو الجرجاني في نظريته إلى وحدة اللفظ والمعنى، ويرد على من يدعو إلى تقديم أحدهما على الآخر. يقول: "من أنه لا يُتَصوَّر أن تَعْرِف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك أَتبعتها الألفاظ وقَفَوْت بها آثارها، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتَّبُ لك بحكم أنها خَدَمٌ للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علمٌ بمواقع الألفاظ الدالة عليها في المنطق"[7].

فهو ينظر إلى الكلمة "قبل دخولها في التأليف..... وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة، هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها"[8].

فقاد بذلك حملة على من قدّم اللفظ على المعنى، أو المعنى على اللفظ، أو قال بفصاحة اللفظ وتلاؤم الحروف، فيرد قائلاً "والذي يبطل هذه الشبهة إن ذهبَ إليها ذاهب، أنّا إن قصرنا صفة "الفصاحة"على كون اللفظ كذلك، وجعلناه المراد بها، لزمنا أن نخرج "الفصاحة"من حيز "البلاغة" ومن أن تكون نظيرة لها. وإذا فعلنا ذلك، لم نخلُ من أحدِ أمرين: إما أن نجعله العمدة في المفاضلة بين العبارتين ولا نُعرِّج على غيره، وإمّا أن نجعله أحدَ ما نُفاضل به، ووجهاً من الوجوه التي تقتضي تقديم كلام على كلام"[9].

ورد على الجاحظ المتشدد في جعل العلم بالمعاني مشتركاً، والفضل للفظ، في قوله "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والقرويُّ والبدويّ وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخيْر اللفظ، وسُهولة المخرج، وصحة الطبع، وكثرة الماء، وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير"[10].

ويؤكد على غلط من قدَّم الشعر بمعناه، ولم يحتف باللفظ ، يقول: إنه ينبغي إذا فضلنا بيتاً على بيت من أجل معناه، أن لا يكون تفضيلاً له من حيث هو شعر وكلام. وهذا قاطع"[11].

ذلك "أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصباغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبّر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغُ فيه، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتمٌ أو سِوَار. فكما أن محالاً إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم، وفي جودة العمل ورداءته، أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة، أو الذهب الذي وقع فيه ذلك العمل وتلك الصفة = كذلك محال إذا أردت أن تعرف / مكان الفضل والمزية في الكلام، أن ننظر في مجرد معناه"[12] كما أنه "إذا تغير النظم فلابدَّ حينئذ من أن يتغير المعنى"[13].

وعلى الرغم من أنّ الباحثين أقاموا أبحاثهم على "موازنة الرجل بين "اللفظ والمعنى"، ثم إضفاء المزية كلها على المعنى، مع أن حقيقة الموازنة الجرجانية لم تكن بين (الدال والمدلول)، وإنما بين الصياغة والناتج الدلالي"[14]، لذلك هو يقسم الكلام إلى ضربين "ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وضرب آخر لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده،..... ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه/ موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على "الكتابة" و "الاستعارة" و "التمثيل"[15] وهذا ما يسمى حديثاً "اللغة الشعرية".

وعليه فليس للألفاظ مزية وهي منفردة عن سياق الكلام، وإنما تظهر مزيتها في نظم الكلام، فمدلولها يظهر من خلال علاقة الكلمات بعضها ببعض "فإنّا نرى اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضع، ونراها بعينها فيما لا يُحصى من المواضع وليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير"[16] وهنا تتحقق شعرية الكلام في وضع الألفاظ في سياق كلامي تترابط عناصره بروابط نحوية "فينبغي أن يُنظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكَلِمُ إخباراً وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً، وتؤدى في الجملة معنى من المعاني لا سبيل إلى إفادتها إلا بضمّ كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة"[17].

فاللفظة لا تكون فصيحة بذاتها، إنما في وقوعها في داخل النظم وعلاقتها مع غيرها من الألفاظ، وبذلك يُنتج المعنى من الروابط النحوية.

إنّ وجود مستويين للفظة عند الجرجاني، دعاه إلى التوصل إلى مصطلحه المشهور (معنى المعنى) (meaning of meaning) "أن تقول: "المعنى"، و "معنى المعنى"، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والّذي تصل إليه بغير واسطة = و "بمعنى المعنى"، أن تعقل من اللفظ معنى"، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"[18].

وعليه فلا يكون الجمال في اللفظ ولا في المعنى وإنما هو في نظم الكلام فاللفظة تصبح شعرية بحسب مكانها من النظم "ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتُؤنِسك في موضع، ثم تراها بعينها تَثْقُل عليك وتُوحِشك في موضع آخر"[19] وبذلك "وجب لمعنىً أن يكون أوّلاً في النفس، ووجب لّلفْظ الدال عليه أن يكون مثله أوّلاً في النطق"[20].

وعليه فإنّ عبد القاهر الجرجاني وإن لم يصرح بالشعرية (poetic)، فهو "لم يكن مطالباً بأن يتعامل مع مصطلح "الشعرية" كما نتعامل معه اليوم وربما كان اختياره لمصطلح النظم أدق، إذ هو يعبر بصدق عن تزاوج خط المعجم وخط النحو مع إعطاء أولوية للخط الثاني. وذلك بالعمل من خلال قوانينه، والتحرك من خلال مناهجه، والحفاظ على رسومه، دون الإخلال بشيء من هذا كله"[21].

وتتضمن نظرية النظم بحثاً معمقاً في الجانب التداولي "أي بالفروق بين البنى التركيبية والسياقات الإبلاغية المنسوبة إليها"[22].

فهو يراعي حال السامع والفائدة التي يحصل عليها من الخطاب الموجه إليه ، فمن فروق في الخبر أعطى مثالاً جاء فيه "أنك تقول: "زيد منطلق" و "زيد المنطلق" و "المنطلق زيد" فيكون لك في كل واحدة من هذه الأحوال غرض خاص وفائدة لا تكون في الباقية. وأنا أفسر لك ذلك.

اعلم أنك إذا قلت: "زيد منطلق"، كان كلامك مع من لم يعلم أن انطلاقاً كان، لا من زيد ولا من عمرو، فأنت تفيده ذلك ابتداءً.

وإذا قلت "زيد المنطلق" كان كلامك مع من عرف أن انطلاقاً كان، إما من زيد وإما من عمرو، فأنت تعلمه أنه كان من زيد دون غيره"[23].

وقد أشار الجرجاني إلى الإفادة من تعريف الخبر بـ الـ"بمعنى الجنس"، والإفادة في ظواهر الإثبات والنفي، وفي أسلوب التقديم والتأخير.....

وسنذكر بعض ما حققه الاستفهام من إفادة ذكرها الجرجاني في مثال الاستفهام بالهمزة "فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت: "أفعلت؟" فبدأت بالفعل، كان الشك في الفعل نفسه، وكان/ غرضُكَ من استفهامك" أن تعلم وجوده، وإذا قلت: "أأنت فعلت؟"، فبدأت بالاسم، كان الشك في الفاعل من هو، وكان التردد فيه"[24].

"إنّ الغاية التواصلية التي يريد المتكلم تحقيقها من الخطاب وقصده منه. وعليه تكون "مراعاة الغرض من الكلام" قرينه تساعد في تحديد الوظيفة النحوية للكلمة وبيان دورها في التحليل النحوي للجملة"[25].

وهي ما اشترطه الجرجاني من خلال نظرية النظم في معرفة غرض المتكلم في تحديد بعض الوظائف النحوية وأغراضها التداولية من أمثال التوكيد والقسم و.....

فمثلاً "تقديم المحدّث عنه يقتضي تأكيد الخبر وتحقيقه له، إنا إذا تأملنا وجدنا هذا الضرب من الكلام يجيء فيما سبق فيه إنكار من منكر، نحو أن يقول الرجل: "ليس لي علم بالذي تقول"، فتقول له: "أنت تعلم أن الأمر على ما أقول، ولكنك تميل إلى خصمي"[26].

إنّ الصلة التي أقامها الجرجاني بين النحو وعلم المعاني صلة وثيقة، لأن الجرجاني لا يفهم النظم إلا بقوله: "أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها"[27].

"فالنحو عنده ليس تتبعاً ومطاردة للحركة الإعرابية، بل وظيفته الأساسية إبراز الفروق بين المستويات التداولية للتراكيب بحسب الأنماط المقامية التي ترد فيها، تطبيقاً لقاعدة: "لكل مقام مقال"، وقد سماها هو نفسه "معاني النحو""[28].

ويتحدث الجرجاني عن الكناية والمجاز، ويقول إن "الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلاً، وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة"[29].

إن الدقة المتناهية في نظرية النظم التي تتعلق بالنحو جعلت من الأجيال اللاحقة، تدقق في البنية اللغوية، وتدرك أسرارها التي أرادها الجرجاني لتدرك سر إعجاز القرآن ولغتنا العربية في كلام الجرجاني، لتكون نظرية النظم نظرية لسانية أسلوبية قبل أن تكون نظرية في التعبير الفني والبلاغي.

عبد القاهر الجرجاني والدراسات اللغوية المعاصرة:

لقد ظهرت خصوصية الجرجاني في تجاوزه للعلامات الإعرابية، وبين أن الكلام نظم، وأنَّ هذا النظم هو سبيل الإفهام، وقد تنبه د.إبراهيم مصطفى إلى منهج الجرجاني فقال: "ولقد آن لمذهب عبد القاهر أن يحيا وأن يكون هو سبيل البحث النحوي، فإن من العقول ما أفاق لحظة من التفكير والتحرر وأن الحس اللغوي أخذ ينتعش ويتذوق الأساليب ويزنها بقدراتها على رسم المعاني والتأثير بها من بعد ما عاف الصناعات اللفظية وسئم زخارفها"[30].

اقترب الجرجاني في مفهومه الذي قدمه في نظرية النظم عن النحو من مفهوم رومان جاكبسون (Roman Jakobson) الذي أقره في الوظيفة الشعرية للنحو، وذلك عندما فرّق الجرجاني بين المعنى المعجمي والمعنى الذي يفرضه السياق في قوله: الكلام على ضربين: ضرب أن تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده،..... وضرب أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه/ موضوعُه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض[31]، أما جاكبسون فقد وصف هذا الفرق بأنه واقعة بنيوية موضوعية[32].

وفرّق الجرجاني بين المزية التي يرجحها النحو على أنواع المجاز والاستعارة "فالفرق بين أن تكون المزية في اللفظ، وبين أن تكون في النظم = باب يكثر فيه الغلطُ، فلا تزال ترى مستحسناً قد أخطأ بالاستحسان موضعَه، فينحلُ اللفظ ما ليس له، ولا تزال ترى الشبهة قد دخلت عليك في/ الكلام قد حَسُن من لفظه ونظمه، فظننت أنه حُسنَه ذلك كله للفظ منه دون النظم"[33].

ثم يقول "إنّ في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته"[34].

وأتى بمثال يوضح ذلك قوله تعالى: "واشتعل الرأس شيباً"[35].

"لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، ولم يروا للمزية موجباً سواها، .....وليس الأمر على ذلك ....ولكن لأن سُلِك بالكلام طريقُ ما يُسنَد الفعل فيه إلى الشيء، وهو لما هو من سببه فيُرفَع به ما يُسند إليه، ويؤتى بالفعل الذي له في المعنى منصوباً بعده"[36].

فنظم العبارة بفاعلها وتميزها هو الذي منحها المزية وليست الاستعارة، فلو قيل (اشتعل شيب الرأس) لذهبت تلك المزية.

واقترب جاكبسون من ذلك عندما ضرب مثلاً بقصيدة (بلا صور):

"إن صور النحو في قصيدة (بلا صور) هي التي تصير مهيمنة وهي التي تحل محل المجازات..... وتعتبر (كذا) القصائد الغنائية لبوشكن..... شأنها شأن أنشودة معركة هوسيت، أمثلة بليغة عن الاستخدام المحتكر للأدوات النحوية"[37].

وعندما تحدث الجرجاني عن النظم وصلته بالنحو، لم يرد بالنحو الفرق في الحركات، بل هو توخي معاني الإعراب، "فلا يتصور أن يتعلق الفِكْرُ بمعاني الكلم أفراداً ومُجرَّدة من معاني النحو، فلا يقوم في وهم ولا يصح في عقل، أن يتفكر متفكر في معنى "اِفعْلِ" من غير أن يريد إعماله في "اسم"، ولا أن يتفكر في معنى "اسم" من غير أن يريد إعمالَ "فعلِ"فيه، وجعله فاعلاً له أو مفعولاً"[38].

ويتابع الجرجاني "اعلم أني لست أقول إن الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة أصلاً ولكني أقول إنه لا يتعلق بها مجردة من معاني النحو، ومنطوقاً بها على وجهٍ لا يتأتى معه تقدير معاني النحو وتوخيها فيها"[39].

و ضرب مثالاً على ذلك قول بشار بن برد:

"كأنَّ مثـار النقـع فـوق رؤوسنـــا
وأسيافنـــا ليـــل تهـــاوى كواكبُـــه

وانظر هل يُتَصَّور أن يكون بشار قد أخطر معاني هذه الكلم/ بباله أفراداً عارية من معاني النحو التي تراها فيها = وأن يكون قد وقع "كأنَّ" في نفسه من غير أن يكون قصد إيقاع التشبيه منه على شيء = وأن يكون فكّر في "مثار النقع"، من غير أن يكون أراد إضافة الأول إلى الثاني = وفكّر في "فوق رؤوسنا"، من غير أن يكون قد أراد أن يضيف "فوق" إلى "الرؤوس" = وفي "الأسياف" من دون أن يكون أراد عطفها بالواو على "مثار" = وفي "الواو" من دون أن يكون أراد العطف بها = وأن يكون كذلك فكّر في "الليل"، من دون أن يكون أراد أن يجعله خبراً "لكأنَّ" = وفي "تهاوى كواكبه"، من دون أن يكون أراد أن يجعل "تهاوى" فعلاً للكواكب، ثم يجعل الجملة صفة لليل، ليتَّم الذي أراد من التشبيه؟ أم لم يُخطِر هذه الأشياء بباله إلاّ مراداً فيها هذه الأحكام والمعاني التي تراها فيها؟[40].

لقد أعطى النظم معانيَ جديدةً للكلمة بفعل العلاقات النحوية، ولو تغيرت الألفاظ لفسد المعنى.

وأشار جاكبسون إلى الوظيفة النحوية مستخدماً أمثلة منها "إننا حينما نقرأ... الحياة جميلة، ويجمل أن نحيا فإنه من الصعب أن نجد في المستوى العرفي فرقاً بين هاتين الجملتين ..... إلاّ أن الاختلاف اللساني الذي يصطلح بمهمة التسمية ومن ثم بمهمة التجوز النحوي النقلي إلى صورة كنائية عن الحياة بوصفها كذلك... فهي في حد ذاتها مستبدلة بالناس الأحياء"[41].

ولئن اتفق الجرجاني وجاكبسون في الوظيفة الشعرية النحوية ضمن النظم، فإن جاكبسون لم يكتف بالبيت الشعري أو المقطع كما فعل الجرجاني، بل تعدّى ذلك إلى النص كله.

وربما كان مفهوم "العدول" الذي استخدمه الجرجاني في دلائل الإعجاز، المفهوم الأقرب لمصطلح "الانزياح" الذي تحدث عنه "جون كوهن" (John cohen) "وهو أقوى المصطلحات القديمة تعبيراً عن مفهوم الانزياح، ورأى بعضهم أن المصطلح أحسن ترجمة لمفهوم الانزياح، ولكننا لم نر ذلك، وفضلنا عليه مصطلح الانزياح من دون أن نصادر على الآخرين آراءهم،..... إن المصطلح أو بعض مشتقاته وارد في بعض كتب النقد واللغة والبلاغة"[42].

فقد ورد العدول عند الجرجاني في قوله: "اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسمٌ/ تُعْزَى المزيَّة والحسن فيه إلى اللفظ = وقسمٌ يُعزَى ذلك فيه إلى النظم.

فالقسم الأول: "الكناية" و "الاستعارة" و "التمثيل الكائن على حَدِّ الاستعارة"، وكلٌّ ما كان فيه، على الجملة، مجازٌ واتساع وعُدولٌ باللفظ عن الظاهر، فما من ضَرْبٍ من هذه الضروب إلا وهو إذا وقع على الصّواب وعلى ما ينبغي، أوجب الفضل والمزية"[43].

وقد حدد جون كوهن غاية الانزياح، "بتشغيل الصورة الشعرية التي بموجبها يتغير المعنى، وكي تحقق القصيدة شعريتها ينبغي أن تكون دلالتها مفقودة أولاً ثم يتم العثور عليها وذلك كله في ذهن القارئ"[44].

ثم "إنّ اللغة في المنظور الوظيفي وسيلة للتواصل من أقرب الطرق وبأقل جهد، والشعر حسبه أن يسعى إلى عرقلة هذه الوظيفة بطرق متعددة، وليس فرق اللغة إلا مرحلة أولى من عملية الانزياح، التي ينبغي أن تتلوها مرحلة أخرى هي مرحلة تقليصية، وهي مرحلة تعيد الصورة إلى حضرة اللغة"[45].

إن نظرية الانزياح عند "كوهن" تقوم "على مجموعة من الثنائيات، ثنائية (المعيار/ الانزياح) وثنائية (الدلالة التصريحية/ الدلالة الحافة)"[46].

وقد فرّق الجرجاني بين اللغة والكلام وأكد على العلاقات أو النظام أو النظم، حيث يقول: أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى لا يُعلَّق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض، وتُجعل هذه بسبب من تلك[47]..

و ركز الجرجاني كما ركز ده سوسر على دور المتلقي في إدراك معنى المعنى، ومسائل المجاز وهي من أحدث الأبحاث النقدية.

وقد تكلم الجرجاني على الدال والمدلول، فجعل الرابط الدلالي بين الصوت ومرادفه المدلول قائمة على تخيّل سابق للمعاني على الدلالات الصوتية، فالمعنى يدرك، ثم تواضع الناس على الصوت، ليدل على ذلك المعنى المسبق في الذهن يقول: "ليت شعري، هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني، وهل هي إلا خدم لها، ومصرفة على حكمها؟ أو ليست هي سمات لها، وأوضاعاً قد وضعت لتدل عليها؟ فكيف يُتصوَّر أن تسبق المعاني وأن تتقدمها في تصور النفس؟ إن جاز ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وُضِعت قبل أن عُرِفت الأشياء وقبل أن كانت[48].

ويتابع القول "ومن هذا الذي يشك أنا لم نعرف "الرجلَ" و"الغرسَ" و"الضربَ" و"القتلَ" إلا من أساميها؟

لو كان لذلك مساغٌ من العَقْلِ، لكان ينبغي إذا قيل: "زيد" أت تعرف المسمَّى بهذا الاسم من غير أن تكونَ قد شاهدتَهُ أو ذُكر لك بصفة وإذا قلنا في العلم بالغات من مبتدإ الأمر أنه كان إلهاماً، فإن الإلهام لا يرجع إلى معاني اللغات، ولكن إلى كون ألفاظ اللغات سماتٍ لتلك المعاني، وكونها مرادة بها. أفلا ترى إلى قوله تعالى: (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين)، أفترى أنه قيل لهم: "أنبوني بأسماء هؤلاء"، وهم لا يعرفون المشارَ إليهم بهؤلاء؟"[49].

وهذا ما جاء به سوسر الذي جعل مصطلح العلامة يتألف من:

الدال (signifier) وهو الصورة الصوتية، والمدلول (signified) وهو الصورة المفهومية التي تعبر عن التصور الذهني الذي يحيلنا إلى الدال، ولا يتم الفهم إلا بالدلالة، وهذه الدلالة التي تربط الدال بالمدلول علاقتها اعتباطية، وفي ذلك يقول: "إن العلامة الألسنية هي اعتباطية، وذلك لتعريفنا العلامة أنها مجموع ما ينجم عن ترابط الدال بالمدلول"[50].

ويتابع القول "فالكلمة ليست معللة أي أنها اعتباطية بالقياس إلى المدلول الذي يربط بينهما، فلا وجود لأية رابطة طبيعية"[51].

خاتمة:

لقد حاولنا في هذا البحث أن نكشف بعض الملامح اللسانية في الفكر اللغوي العربي[52]، ممثلاً في أهم رموزه: عبد القاهر الجرجاني، لتظهر أفكاره التي تصلح أن تكون نظرية متكاملة، تؤكد أن العلماء العرب كانوا السابقين لإدراك أهمية سياق الحال وربطه بالمتلقي والظروف المحيطة بالحدث الكلامي في إظهار المعنى المراد.

فالجرجاني كشف أهمية النظم الذي يعتمد على توخي معاني النحو، فأدرك بذلك الوظيفة الشعرية والدلالية للنحو، وهذا ما أثاره "جاكسبون" في كتابه "قضايا الشعرية"، فالتقيا في التفريق بين المعنى المعجمي والمعنى السياقي، وفي ترجيح النحو على أنواع المجاز والاستعارة.

وورد مفهوم "العدول" عند الجرجاني مسايراً لنظرية "الانزياح" التي صاغها "جون كوهن" في كتابه "بنية اللغة الشعرية".

كما فرّق بين الدال والمدلول، وأكد أن العلاقة بينهما اعتباطية، كما جاء عند "سوسر" مؤسس علم اللسانيات.

وقد طرح الجرجاني العديد من القضايا الشعرية من خلال نظرية النظم، التي تدرس التغيرات التي تطرأ على التركيب من حيث المستوى الأفقي والعمودي، ومنها قضية التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والاستعارة، والكناية.....وإن لم يستخدم مصطلح الشعرية.

إنّ إدراك نظرية النظم عند الجرجاني، والكشف عن أسرارها، ودور الجرجاني ومنهجه في دراسته، يثبت أنها نظرية لسانية أسلوبية، تؤكد أن صاحبها سبق الكثير من المدارس اللسانية الحديثة.

وهو جهد وإن ظهر جلياً في التراث العربي، فكل علم جديد يساير مبدأ النشوء يكون قليلاً ثم يكبر عبر الأجيال اللاحقة إن لم تهمله.

وقد عانى الفكر اللغوي العربي من الغبن في الدراسات العربية والغربية، فقد اكتفى جورج مونان في كتابه "علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين" بأسطر قليلة عن العرب، وبهذه الإشارة نظن أنّنا رفعنا قليلاً من الغبن عن موضوع اللسانيات وصلتها بالتراث العربي، وما ذلك إلا لنؤكد أنّ اللسانيات تحمل طابع الإبداع الغربي والأصالة العربية.

دون أن نعني بالقول: إنّ علماء العربية توصلوا إلى ما توصل إليه علماء الغرب، لكن ما توصل إليه العرب يمكن أن يكون نواة، تدل على وحدة الحضارة الإنسانية وتأثر المجتمعات بعضها ببعض، فكل حضارة تقدم جزءاً من أجل بناء الحضارة الإنسانية عامة.

الحواشي:

1- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط3، 2009، ص17،(أو– أم)

2- فردينان ده سوسر، محاضرات في الألسنية العامة، تر.يوسف غازي، مجيد النصر، دار النعمان للثقافة، 1984م، ص89

3- طراد الكبيسي، في الشعرية العربية قراءة جديدة في نظرية قديمة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص56

4- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، دون تاريخ، ص81

5- طراد الكبيسي، في الشعرية العربية "قراءة جديدة في نظرية قديمة"، ص57

6- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص55

7- المصدر السابق، ص53–54

8- المصدر السابق، ص44

9- المصدر السابق ، ص58

10- أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبين، تحقيق محمد عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دون تاريخ، ج21 ص171

11- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص255

12- المصدر السابق ، ص254– 255

13- المصدر السابق ، ص265

14- عصام شرتح، بذور الشعرية عند عبد القاهر الجرجاني، جريدة الأسبوع الأدبي، عـ956، تاريخ 7 / 5 / 2005

15- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص262

16- المصدر السابق ، ص401

17- المصدر السابق ، ص44

18- المصدر السابق ، ص263 (واسطة- وساطة)

19- المصدر السابق ، ص46

20- المصدر السابق ، ص52

21- محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة عند الجرجاني، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط1، مصر، 1995م، ص134

22- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005، ص191

23- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص177

24- المصدر السابق ، ص111

25- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، ص200- 201

26- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص133

27- المصدر السابق ، ص81

28- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، ص221

29- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص70

30- إبراهيم مصطفى، إحياء النحو،القاهرة، 1959، ص16- 20

31- ينظر عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص262

32- ينظر، رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، تر.محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر،المغرب، 1988، ص364

33- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص98

34- المصدر السابق ، ص100

35- القرآن الكريم، سورة مريم، 4

36- ينظر عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص100

37- رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، ص71 ،(تعتبر- تعد)

38- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص410

39- المصدر السابق ، ص410

40- المصدر السابق، ص411- 412

41- رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، ص65

42- ينظر أحمد محمد ويس، الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 2002، ص37- 38

43- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص429- 430

44- جون كوهن، بنية اللغة الشعرية، تر. محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1986، ص173

45– محمد العمري، تحليل الخطاب الشعري، دار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1990، ص36
46– فريدة مولي، شعرية الخطاب الأدبي، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العربي بدمشق، ع 414، ت1، 2005
47– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص55
48– المصدر السابق، ص417
49– المصدر السابق، ص540– 541
50– فردينان ده سوسر، محاضرات في الألسنية العامة، ص89
51– المصدر السابق، ص91
52– للتوسع ينظر، عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية.

المراجع:

1– القرآن الكريم.
2– إبراهيم مصطفى، إحياء النحو،القاهرة، 1959.
3– أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبين، تحقيق محمد عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دون تاريخ، ج21.
4– أحمد محمد ويس، الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، منشورات اتحاد الكتاب العرب،دون تاريخ.
5– جون كوهن، بنية اللغة الشعرية، تر. محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1986.
6– رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، تر.محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر،المغرب، 1988.
7– طراد الكبيسي، في الشعرية العربية قراءة جديدة في نظرية قديمة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004.
8– عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط3، 2009.
9– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، دون تاريخ.
10– عصام شرتح، بذور الشعرية عند عبد القاهر الجرجاني، جريدة الأسبوع الأدبي، ع956، تاريخ 7 / 5 / 2005
11– فردينان ده سوسر، محاضرات في الألسنية العامة، تر.يوسف غازي، مجيد النصر، دار النعمان للثقافة، 1984م.
12– فريدة مولي، شعرية الخطاب الأدبي، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العربي بدمشق، ع 414، ت1، 2005
13– محمد العمري، تحليل الخطاب الشعري، دار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1990.
14– محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة عند الجرجاني، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط1، مصر، 1995م.
15– مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005.